دوارة الريـ ـ ـاح

يسرى الأيوبي

عاشت دوارة رياح حياة صاخبة في المنطقة الشمالية العاصفة المتقلبة، وتعبت من عبث الرياح بها، حتى أن السهم في أعلاها لم يكن يقر له قرار، فهو يتجه حينا الى الشرق وحينا الى الغرب بحركة سريعة منهكة دون لحظة راحة واحدة.

وكانت قد تزوجت من عمود رأسي من الحديد لقي مثل ما لقيت من صعوبة الحياة ومشاقها يزعجه دورانها، ويقض مضجعه تقلباتها، ولا يجد فرصة طيبة يتناجى وإياها أحاديث الغرام.

وشكت ذات يوم همها الى رأس العائلة وكان يسكن في الطابق الأسفل من مكان إقامتها. وهو عمود من الحديد ثابت الجنان قوي الشكيمة له رأس صغيرة يمد من أسفلها أربعة أذرع أفقية الى مهب الرياح الأربعة. وكان شيخا مسنا شهد زوابع كثيرة قاسية وأحس لسعها، ولكن لم يخطر له يوما أن يغير مكان إقامته، فجذوره موغلة في الصخر والإسمنت منذ مئات السنين. وكان يتقبل قدره السعيد حينا، التعيس حينا آخر بكثير من القناعة وسعة الصدر.

قال الشيخ المسن للدوارة:

- أوجعت لي رأسي بشكواك الدائمة.. أنك لاتكفين عن التذمر أنت وأخواتك، كأنما القرح الذي يصيبك لايصيب غيرك في هذا الكون. بالأمس حين هب الإعصار قلع الأشجار وأغرقت السيول البيوت والناس، فماذا لو التوى لك مفصل بين الحين والآخر؟

قالت الدوارة نائحة:

- ماعدت أطيق الحياة في هذا المكان، ان عنف الرياح وخصامها ومشاجراتها لاتترك لي أو لزوجي راحة أبدا.

قال الشيخ الحديدي مهدئا سورتها:

- إنني أحتمل رقصك وزوجك فوق رأسي تلك السنين الطويلة منذ أن صنعتنا يد المهندس ووضعتنا في هذا المكان، فتجملي أنت أيضا بالصبر، فلا بد لأيام المحن أن تزول.

تنهدت الدوارة وقالت:

- لو أننا كنا نعيش في مكان أكثر اعتدالا لنعمنا بالراحة ودفء الشمس، يداعبنا نسيم البحر اللطيف، ويولد فينا الهوى والشباب. إن زوجي غدا متجمدا بسبب الثلوج والعواصف وهو لايلتفت الي، ولم أسمع منه منذ زمن كلمة حلوة ينبعث منها الدفء. وكيف يمكن له ذلك وهو دائما خائف مرتعش من أن تفك تلك العواصف الجبارة مفاصله وتطايره أشلاء منتشرة في الجو؟

قال كبير العائلة بلهجته الرزينة:

- قرأت في الكتب المقدسة أن المهندس الذي صنع فصيلتنا أخذ تصميمها عن دوارة كانت تقطن في القديم زمنا كان من أسعد أيامها، وكانت لها صولة ودولة، حتى أن الريح التجارية كانت حاجبة في قصرها.

لم تصدق الدوارة الطموحة أذنيها واستبد بها الفرح:

- في الربيع الماضي حط على ذراعي طائر متوسطي ملون الريش غنى لي أغاني بلاده، فأحسست برغبة جارفة للعيش هناك أنعم بالهدوء والسكينة والدفء. فلماذا لانذهب الى هناك؟ فلا بد أن المنطقة تلائمنا مادامت جدتنا عاشت فيها سعيدة.

أطرق العمود الحديدي ساهما إذ تبين له أن الدوارة حمي رأسها وأنها مصرة على أن تجد صلة نسب لها بتلك الدوارة التاريخية التي جاء ذكرها في الكتب. ندم على ما تفوه به وقال محاولا التخفيف من حماسها:

- إن الرياح ترفض نقلنا الى هناك فنحن لسنا طيورا ولا رملا تنقله الرياح، بل نحن كائنات مثبتة في الأرض لاتنخلع بسهولة. وفوق هذا إن للرياح نظامها الكوني الذي تأبى أن تغير فيه، ونحن كما تعلمين لسنا إلا أدوات تديرها الرياح كيفما شاءت.

ما كان هذا الحديث الا ليزيد الدوارة تشبثا برغبتها التي أصبحت جارفة لاتستطيع مقاومتها. فما دام الأمر متعلقا بالرياح فهي كفيلة أن تقنعها برغبتها في الإنتقال الى ساحل المتوسط، فهي جميعا تعشقها ولا ترد لها طلبا. وخيل اليها في غرورها أنها هي التي تدير الرياح، وأنها طوع أمرها، وأخذت في نشر الأساطير عن مكانتها وأهميتها للرياح، وعن نبوءات آن أوان تحققها، وأن الرياح هي مجرد أدوات لتنفيذ إرادة ربانية خلقت الكون لمصلحتها وراحتها. ولما أخذ الشيخ الرصين في لومها صاحت به محتدة:

- ألا تصدق؟ انا خالقة الرياح، وهي تتحرك بإشارة مني.. أنظر الي، حين أشير الى الغرب تأتيني من الغرب، وحين أشير الشرق تأتيني من الشرق، وهكذا حين أشير الى الشمال والجنوب. ألا يكفيك هذا دليلا على أن الرياح ملك إرادتي؟

قال كبير العائلة وقد أخذ بحماسها:

- حبذا لو كان لنا وطن في مركز العالم وأجلس على تل مشرف على البحر أراقب السفن العابرة التي تمر رهن إشارتي. ولكن تحقيق هذا أشبه بالمعجزة. أما اذا كنت حقا صديقة الرياح ومعشوقتها فلا أستبعد أن تحدث تلك المعجزة. إن الرياح تصبح حقا طوع أمرنا.

ومنذ ذلك اليوم لم يعد للدوارة من هاجس يؤرق ليلها ويشغل بالها طوال النهار الا أن يتحقق حلمها بالإنتقال الى شاطئ المتوسط، ولم تمر بها ريح الا استعطفتها:

- أنقليني الى ساحل المتوسط أيتها الريح الغربية، أنت الآمرة الناهية بين الرياح، وأنا كفيلة أن أرعى هناك مصالحك.

- إنه وطني الحبيب أيتها الريح الشمالية، وطن أجدادي الأوائل الذين جاء ذكرهم في الكتاب المقدس.

- أطلب العدالة والإنصاف أيتها الريح الشرقية. أعيديني الى وطني الذي نفيت منه، إرحمي تشتتي السنين الطويلة وانقذيني من عذابي، وثقي أنني هناك أرعى مصالحك!

- أيتها الريح الجنوبية، أنت قريبتي، أنت ابنة عمي، لعن الله الزمن الذي فرق بيننا، وأنا لو تعلمين بغامر الشوق كي يلتئم شمل عائلتنا الواحدة. ساعديني لأعود إلى وطني وأحقق النبوءة القديمة.

وكانت الرياح تضحك عاليا وتتهامس فيما بينها:

- جنت دوارة الرياح، فهي تزعم أشياء لم نسمع بها من قبل. من أين تخترع لنفسها الأنساب والحقوق؟ إنها تريد تغيير النظام الكوني كي تحقق أوهامها وأطماعها.

وأعملت الدوارة الفكر طويلا ثم غيرت من لهجتها:

- إنني أعرف أطماعكن جميعا أيتها الرياح فكم تهامستن عند أضلعي.كل واحدة فيكن تشتهي أن تتمطى على شاطئ البحر المتوسط، ولهذا تشككن في حقوقي ونسبي. إنكن تخشينني لأنني أقدم منكن تاريخا، وأعرق نسبا، وأكثر أنصارا. ان رياح الفجوات والدروات، والرياح الموسمية والإستوائية كلهن أنصاري، فماذا تظنين نفسك أيتها الرياح المتعجرفة؟ أنا التي أوجهك وأسيرك عرفت ذلك أم لم تعرفي، ولن تستطيعي تحقيق أحلامك في أن تنفذي الى شاطئ المتوسط دون أن أشير عليك بأن تفعلي.

وأردفت قبل أن تفيق الرياح من دهشتها وتحال تلك الظاهرة الغريبة التي برزت فجأة لتلعب دورا بينها.

- أنا لست بحاجة الى صداقتكن ولكنكن بحاجة الى صداقتي، وأنا لاأرغب في الذهاب الى شاطئ المتوسط بناء على اوهام أو أطماع كما يخيل لكن، بل لأمر لاعلاقة له بشخصي، لأصلح بينكن أيتها الرياح الحمقاء الهائجة التي تدمر السفن وتسقط الطائرات وتحرف القطارات عن مسارها، وتقتلع الشجر وتهدم البيوت. ليكون بينكن سلام فتنشط الريح التجارية التي كانت ذات يوم حاجبة في قصر جدتي، ويعم الخير الجميع.

* * *